



الجزء السادس من المجلد الثالث

جمادى الثانية سنة ١٣٢٦ موافق يوليو (تموز) سنة ١٩٠٨

صدور المشاركة والمعارفة

عبد الله بن المقفع وعبد الحميد بن يحيى

نشأ للعربية في أوائل القرن الثاني للهجرة كاتبان بليغان يصح أن يدعيا واضعي أساس الإنشاء العربي وناهجي طريقة الكتابة المرسنة فكانا منارا يهتدى به إلى يوم الناي هذا ونعني بهما عبد الله بن المقفع وعبد الحميد بن يحيى الكاتب. ظهر هذان الإمامان والنفعة في نصرتهما الأولى فكان لهما من فطرتهما السنية أعظم مساعد لهما على النبوغ وزادت شهرتهما مساعد لهما على النبوغ وزادت شهرتهما لاتصاهما بالحنفاء والأمراء ومراهما على الكتابة في الأغراض الكثيرة التي كانت تطلب إليهما فيخوضان عبابها مجتهدين مبرزين.

نشأ ابن المقفع في العراق على ما ينشأ عنده أبناء اليسار وكان والده يتحل فحمة مجرس الفرس ولي خراج فارس للنجاش بن يوسف الثقفي في الدولة الأموية. ولقب المقفع لأن الحجاج ضربه فتفقت يده أي تشعبت لمدتها لأخذ الأموال على ما يقال. وربي ابنه عبد الله تربية إسلامية وأولع بالعلم وهو مكفي المؤونة فجاء منه في سن العشرين ما يندر أن يكون مثله لأبناء الأربعين والخمسين. واتصل بعيسى بن علي عم السفاح والمنصور الخلفيتين الأولين من بني العباس وكاتب له واختص به وأراد أن يدين بالإسلام فجاء إلى عيسى ابن علي وقال له: قد دخل الإسلام في قلبي وأريد أن أسلم على يدك. فقال له عيسى: ليكن ذلك بمحض من القواد ووجوه الناس فإذا كان الغد

فاحضر. ثم حضر طعام عيسى عشية ذلك اليوم فجلس ابن المقفع يأكل ويترجم عن عادته الخس فقال له عيسى: أترجم وأنت على عزم الإسلام فقال: أكره أن أبيت على غير دين. فلما أصبح اسلم على يده فسني بعبد الله وكني بأبي محمد.

أهم كتب ابن المقفع التي طار ذكرها كتاب كنيته ودمته الذي نقله عن الفارسية ورسائله المعروفة بالتيبنة في طاعة السلطان. قال القفطي وهو أول من اعتنى في المنة الإسلامية بترجمة الكتب المنطقية لأبي جعفر المنصور وترجم كتب أرسطو طاليس المنطقية الثلاثة وهي كتاب قاطيغوريوس وكتاب باري أرميناس (أوبارميناس) وكتاب أنا لوطيقا وذكر أنه ترجم إيساغوجي تأليف فرفوريس الصوري. والأرجح أنه نقل هذه الكتب عن الفارسية أو نقلها له ناقل عن اليونانية وصاغها هو في قالب عربي فنسبت له إذ لم يثبت أنه كان يعرف غير الفارسية من اللغات. وعبارة ابن أبي أصيبعة في تاريخ الأطباء تشبه قول القفطي في تراجم الحكماء والغالب أنهما نقلا عن مصدر واحد مع تغيير طفيف في عبارتهما.

قال ابن النديم واسمه بالفارسية روزبه وهو عبد الله بن المقفع ويكنى قبل إسلامه أبا عمرو فلما أسلمنا اكنى بأبي محمد والمقفع بن المبارك إنما تقفع لأن الحجاج بن يوسف ضربه بالبصرة في مال احتجته من مال السلطان ضرباً مبرحاً فتقفعت يده وأصله من خوز مدينة في كور فارس وكان يكتب أولاً لداود بن عمر بن هبيرة ثم كتب لعيسى بن عني عنى كرمان وكان في نهاية الفصاحة والبلاغة شاعراً فصيحاً وهو الذي عمل شرط عبد الله بن عني عنى المنصور وتصعب في احتياطه فيه فاحفظ ذلك أبا جعفر فلما قتله سفيان بن معاوية حرقاً بالنار وقع ذلك من المنصور بالموقع الحسن فلم يطلب

بثاره وطل دمه وكان أحد الثقلة من اللسان الفارسي إلى العربي مضطرباً بالفتن
فصيحاً بهما وقد نقل عدة كتب من كتب الفرس منها كتاب خدائنامة في السير كتاب
آيين نامه في الإصر وكتاب كنبلة ودمنة وكتاب مزدك كتاب التاج في سيرة
أنوشروان كتاب الآداب الكبير ويعرف بمأقراحيسيس كتاب الأدب الصغير كتاب
التيمة في الرسائل.

وقال أن أبا الجاموس ثور بن يزيد أعرابي كان يفد البصرة عنى آل سليمان بن علي
وعنه أخذ ابن المقفع الفصاحة ولا مصنف له وقال: بلغاء الناس عشرة ابن المقفع،
عبارة بن حمزة، حجر بن محمد، محمد بن حجر، أنس بن أبي شيخ، وعنه اعتد أحمد
بن يوسف الكاتب، سالم بن مسعدة الهريز، عبد الجبار بن عدي، أحمد بن يوسف،
وذكره في الشعراء الكتاب فقال أنه مقل وقال وقد كانت الفرس نقلت في القديم
شيئاً من كتب المنطق والطب إلى اللغة الفارسية فنقل ذلك إلى العربي عبد الله بن
المقفع وغيره وقال في الكتب المصنفة في السناء والخرافات أن عبد الله بن المقفع من
جملة من كان يعمل الأسماء والخرافات عنى ألسنة الناس والطير والبهائم.

والراجح أن الحسد غلت مراجعته في صدور بعض معاصريه والمعاصرة كما قيل حرمان
فنسبوا إليه ما نسبوا من الزندقة لقصورهم عن بلوغ شأوه أو لغرض في أنفسهم قال
ابن خنكان نقلاً عن الجاحظ: أن ابن المقفع ومطيع بن إياس ويحيى بن زياد كانوا
يتهمون في دينهم قال بعضهم: كيف نسي الجاحظ نفسه. قلنا وعبرة الجاحظ في
بعض رسائله بشأن ابن المقفع تشير إلى قصوره في علم الكلام فقط فإنه قال:

فصل ومن المعنيين ثم من البلغاء المتأدين عبد الله بن المقفع ويكنى أبا عمرو وكان يتولى لآل الأئمة وكان مقدماً في بلاغة النسان والقلم والترجمة واختراع المعاني وابتداع السير وكان جواداً فارساً جميلاً وكان إذا شاء أن يقول الشعر قاله وكان يتعاطى الكلام ولا يحسن منه لا قليلاً ولا كثيراً وكان ضابطاً لحكايات المقالات ولا يعرف من أين غر المغتر ووثق الواثق وإذا أردت أن تعتبر ذلك إن كنت في خلص المتكسبين ومن النظارين فاعبر ذلك بأن تنظر في آخر رسالته الهاشمية فإنك تجد جود الحكاية لدعوى القوم رديء المدخل في مواضع الطعن عليهم. وقد يكون الرجل يحسن الصنف والصنفين من العلم فيظن نفسه عند ذلك أنه لا يحمل عقده على شيء غلا بعد بد. أهـ.

لا جرم أن إطلاق ابن المقفع لسانه في المعتزلة دعا أحد أنستها إلى أن يصدر عنه هذا الحكم الغريب ولكن الجاحظ أيضاً على ثبوت تدينه لم يسلم من هذا الطعن كما رأيت. وأن مسألة التهمة في الدين من الأمور التي شاعت في كل عصر ومصر ويكون المهضون بها في معظم الأحوال أبرياء وإلا فكيف تسجل الزندقة على ابن المقفع إذا جربنا مع الدليل. وليست الزندقة بحثاً عما يضمره الإنسان في نفسه لأن مثل هذا لا يطلع عنه إلا الله تعالى ويكفي أن يقال هلاً شققت عن قلبه. بل الزندقة التي تذكر في الكتب وتترتب عليها الأحكام ويسوء أن يقال عن فلان أنه زنديق أمور تقوم عليها بينات ظاهرة من أقوال وأفعال وكلام ابن المقفع في الدين يدل على شدة تمسكه وفرط ميئه على ما يتجلى لك من رسالته.

ولو كان ثم سبيل لما ينسب إليه لاسيما مع غضب المنصور عليه لكان الأقرب أن يتقرب مثل المنصور بمثل ذلك وفيه ما فيه من إرضاء العامة وشفاء الغليل من العدو بحيث ينتقم منه مع إسقاطه ولا يعدم المنصور حينئذ حيلة في قتله جهاراً بهذه التهمة. أما اتهام ابن المقفع بمعارضة القرآن فتصرف على القاعدة في اتهامه بالزندقة وما نطن القاضي عياض والباقلاني إلا ناقلين عن أناس من أهل السداحة ومع ذلك فإنهما قالا أنه أناب.

التهمة بالزندقة أمر نشأت منه مضار كثيرة حتى لم يحل منها مثل الإمام الغزالي الذي كان أعظم أنصار الدين فانظر إلى كتاب فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة الذي ألفه في الرد على أولئك الذين نسبوا إليه ما نسبوا فإن فيه الفناء وأغرب من ذلك القيام على أبي حاتم ابن حيان السبتي إمام اخذين في عصره وصاحب الصحيح المشهور به والكتب المستعة الكثيرة واستحصال الأمر بقتله لو لم ينح من ذلك بعوارض لا تخطر في البال.

ومعارضة القرآن أكثر ما تنسب للزندقة المشهورين بالأدب والفضل يشيع ذلك أناس يقصدون إهلاك عدوهم بأي وسيلة كانت أو ناس هم أقرب إلى الزندقة ممن ينسبونها إليها حتى أن أبا العلاء المعري على اضطراب الأقوال في نهاية أمره مع ما علم به من أحواله قد عزي إليه كتاب كان معروفاً في بلاد المغرب يسمى بالفصول والغايات ولا يتوقف من كان قريب العهد من عصره في أنه عنده في معارضة السور والآيات وكان كثير ممن يميلون إلى أبي العلاء المعري من أهل المغرب يعجبون مما وقع فيه من سخافة

القول الذي ينحط عن جميع كلامه المعروف مع أنه ليس له يد في الكتابة كما علم من كتاب سر الفصاحة وكلامه في رسالة الغفران ينادي بخلاف ذلك.

وعلى الجسنة فإن نسبة الرندقة إلى ابن المقفع لا تثبت بوجه من الوجود التي تعقل في إثباتها وإذا نظرنا إلى ما يتعلق بالغيب فالحكم الشرعي أنه هو والناسيون إليه جميعاً في معرفة ما ينطوون عليه سواء لأنه لم يذهب أحد إلى أن الإيمان يتيسر إثباته بالبرهان إلا إذا ورد عن الشارع في شخص معين إثبات الإيمان أو لوازمه لرجل بعينه.

وقصة الرندقة الشنعاء كثيراً ما يتهم بها المشتغون بالفلسفة أمثال ابن رشد والغاربي وابن الصائغ وابن سينا ونسب هذا أنه عارض القرآن وقد كتب رسالة في رد افتراء من افتري عليه ذلك. ومن هنا تظهر لك حسن سياسة المأمون لأن فتح باب البحث عن الرندقة وقد أوجب من المضار ما لا يحصى كما يعلم من التواريخ وربما كان عصر المأمون أقرب إلى قلة الرندقة في الحقيقة من العصور التي كثر اتهام معظم المفكرين بها وغيرهم ممن يراد الانتقام منهم.

عرفت بهذا أن كلام القائلين برندقة ابن المقفع مع ما عرف من كلامه هو من ذلك الباب. قال المرتضى في أماليه روى ابن شبة قال: حدثني من سمع ابن المقفع وقد مر بيت نار للنجوم بعد أن أسلم فليحده وتمثل:

يا بيت عاتكة الذي أنعزل ... حذر العدى وبك الفؤاد موكل

لاي لأمنحك الصدود وأني ... قسناً إليك مع الصدود لأميل

وقال صاحب الأغاني نقلاً عن الجاحظ: كان والبة بن الحباب ومطيع بن إياس ومنقذ ابن عبد الرحمن الهلالي وحفص بن أبي وردة وابن المقفع ويونس بن أبي فروة وحماد

عجود وعلي بن الخليل وحداد بن أبي لينى الاوية وابن البرقان وعمارة بن حمزة ويزيد بن الفيض وحمل بن محفوظ وبشار المرعث وإبان اللاحقي ندماء يجتمعون على الشراب وقول الشعر ولا يكادون يفترون ويهجو بعضهم بعضاً هزلاً وعناداً وكنهم متهم في دينه. قلنا واجتماع المتشاكين قديم في الناس والغالب أنهم يتخرجون من إدخال من ليس على شاكلتهم في زمرهم فيتهنون بما هم منه براء كنا أقم جماعة أبي حيان التوحيدي الذي نقل بعض محاسنهم الفلسفية في مقابساته وكانوا من أهل النحل المختلفة تجمع بينهم جامعة العلم والفلسفة كما جمعت بين ابن المقفع وأصحابه جامعة الأدب فقالوا أنهم كانوا يجتمعون على شراب وأقنومهم بالمروق. وفي كتاب البيان والتبيين للنجاحظ ذكر أنهم كانوا شديد التصافي والالتحام مع شدة التباين في المذاهب.

أما كيفية مقتل ابن المقفع فقد اجمع مترجموه أنه كان بسبب كتابته أماناً لعبد الله ابن علي قال فيه: ومتى غدر أمير المؤمنين بعنه عبد الله ففسأوه طواليق ودوابه حبس وعبيده أحرار والمسلمون في حل من بيعته. فاشتد ذلك على المنصور جداً وخاصة أمر البيعة وكتب إلى سفيان بن معاوية المهني وهو أمير البصرة من قبله فقتله وكان سفيان شديد الحق عنده لأن ابن المقفع على ما يقال كان ينال منه ويستخف به حتى عزم على أن يفتاله فجاءه كتاب المنصور بقتله فقتله سراً في داره ويقال أنه عاش ستاً وثلاثين سنة وسأل سليمان وعيسى ف قيل أنه دخل دار سفيان سنياً ولم يخرج منها فخاصناه إلى المنصور وأحضره إليه مقيداً وحضر الشهود الذين شاهدوه وقد دخل داره ولم يخرج فأقاموا الشهادة عند المنصور فقال لهم المنصور: أنا أنظر في الأمر. ثم

قال لهم: أرأيتم إن قتلت سفيان به ثم خرج ابن المقفع من هذا البيت وأشار إلى باب خلفه وخاطبكم ما تروني صانعاً بكم أأقتنكم بسفيان. فرجعوا كلهم عن الشهادة واضرب عيسى وسليمان عن ذكره وعلموا أن قتله كان برضا المنصور.

ولابن المقفع شعر قليل ولكنه جيد نقل له صاحب الحاشية ثلاثة أبيات يقال أنه رثى بها يحيى بن زياد وقال الأخفش والصحيح أنه رثى بها ابن أبي العوجاء وهي:

رثنا أبا عمرو ولا حيّ مثله ... فله ريب الحادثات بمن وقع

فإن تك قد فارقتنا وتركتنا ... ذوي خلة ما في انسداد لها طمع

لقد جر نفقاً ففقدنا لك أننا ... آمنّا على كل الرزايا من الجزع

قال ثعلب البيت الأخير يدل على أن مذهبهم في أن الخير مزوج بالشر والشر مزوج بالخير — فتأمل.

ومما يذكر عن ابن المقفع ما رواه صاحب الأغاني وغيره قال حدثني اليزيدي قال حدثني عيسى عبيد الله قال حدثني أحمد قال سمعت جدي أبا محمد يقول: كنت ألقى الخليل ابن أحمد فيقول لي أحب أن يجمع بيني وبين عبد الله بن المقفع فجئعت بينهما فمر لنا أحسن مجلس وأكثره علماً ثم افترقنا فلقيت الخليل فقالت له يا أبا عبد الرحمن كيف رأيت صاحبك قال: ما شئت من علم وأدب إلا أفي رأيت عنده أكثر من عقده. ثم لفيت ابن المقفع فقالت له: كيف رأيت صاحبك قال ما شئت من علم وأدب إلا أن عقده أكثر من عنده. وقال المرتضى أن من جمعها كان عباد بن عباد المهدي فتحدثنا ثلاثة أيام ولياليهن.

قال الأصمعي: قيل لابن المقفع من أدبك قال: نفسي إذا رأيت من غيري حسناً أتيتته وإن رأيت قبيحاً ابتعدته. ودعاه عيسى بن عني للعداء فقال: أعز الله الأمير لست يومي للكرام أكلياً قال: ولم؟ قال: لأني مزكوم والركنة قبيحة الجوار مانعة من عشرة الأحرار. ومن كلامه شربت من الخطب رياء ولم أضبط لها رويًا ففاضت فلا هي نظاماً وليس غيرها كلاماً.

ومما يؤثر عنه وهو ما يدل على رأيه في الإنشاء أنه قال لبعض الكتاب: إياك والتتبع لوحشي الكلام طبعاً في نيل البلاغة فإن ذلك هو العي الأكبر. وقال لآخر: عنيت بما سهل من الألفاظ مع التجنب لألفاظ السفلة. وقيل له ما البلاغة فقال: التي إذا سمعها الجاهل ظن أنه يحسن مثلها.

وفي البيان والتبيين عن إسحق بن حسان بن فوهة أنه قال: لم يفسر البلاغة تفسير ابن المقفع أحد قط. سئل ما البلاغة قال: البلاغة اسم جامع لمعان تجري في وجوه كثيرة. فمنها ما يكون في السكوت. ومنها ما يكون في الاستماع. ومنها ما يكون في الإشارة. ومنها ما يكون في الحديث. ومنها ما يكون في الاحتجاج. ومنها ما يكون جواباً ومنها ما يكون ابتداءً. ومنها ما يكون شعراً ومنها ما يكون سجعاً وخطباً ومنها ما يكون رسائل فعامية ما يكون في هذه الأبواب الوحي فيها والإشارة إلى المعنى والإيجاز هو البلاغة.

فأما الخطب بين السبطين وفي إصلاح ذات البين فالإكثار من غير خطل والإطالة من غير إملال. قال: وليكن في صدر كلامك دليل على حاجتك كما أن خير أبيات الشعر البيت الذي إذا سمعت صدره عرفت قافيته. كأنه يقول فرق بين صدر خطبة النكاح

وبين صدر خطبة العيد وخطبة الصلح وخطبة المواكب حتى يكون لكل فن من ذلك صدر يدل على عجزه فإنه لا خير في كلام لا يدل على معنائه ولا يشير إلى مغزاه. وإلى العبود الذي غلبه قصدت والغرض الذي إليه نزع.

قال فليل له: فإن مل المستمع الإطالة التي ذكرت أنها حق ذلك الموقف قال: إذا أعطيت كل مقام حقه وقبت بالذي يجب من سياسة ذلك لا مقام وأرضيت من يعرف حقوق الكلام فلا تهم لما فاتك من رضا الحاسد والعدو فإنهما لا يرضيهما شيء وأما الجاهل فنست منه وليس منك ورضا جميع الناس شيء لا تناله وقد كان يقال رضا الناس شيء لا ينال.

وقال عبد العظيم بن أبي الإصبع في تحرير التحبير في البديع في باب التهذيب والتأديب: قد كان المتقدمون لا يحفلون بالسجع جملة ولا يقصدونه بته إلا ما أتت به الفصاحة في أثناء الكلام واتفق من غير قصد ولا اكتساب وإن كانت كلفهم متوازنة وألفاظهم متناسبة ومعانيهم ناصعة وعباراتهم واثقة وفصولهم متقابلة وتلك طريقة الإمام عني عليه السلام ومن اقتفى أثره من فرسان الكلام كابن المقفع وسهل بن هرون وأبي عثمان الجاحظ وغير هؤلاء من الفصحاء والبلغاء.

وقال الأمين اخي فيما يعول عليه في المضاف والمضاف إليه: يتينة ابن المقفع — يضرب بها المثل لبلاغتها وبراعة منشئها وهي رسالة في نهاية الحسن تشتمل على محاسن من الأدب وقد ذكرها أبو تمام وأجراها مثلاً في قوله للحسن ابن وهب:

ولقد شهدت والكلام لآلى ... تؤم فبكر في الكلام وثيب

فكان قساً في عكاظ يخطب ... وكان ليلى الأخيئية تندب

وكثير غزوة يوم بين ينسب ... وابن المقفع في البيتة يسهب

وقال جلال الدين في المزمهر نقلاً عن أبي الطيب عبد الواحد النغوي في مراتب النحويين قال محمد بن سلام: سمعت مشايخنا يقولون لم يكن للعرب بعد الصحابة أذكى من الخليل بن أحمد ولا أجمع ولا كان في العجم أذكى من ابن المقفع ولا أجمع. وقال المعري في عبث الوليد: كان المتقدمون من أهل العلم ينكرون إدخال الألف واللام عنى كل وبعض وروى الأصمعي أنه قال كلاماً معناه قرأت آداب ابن المقفع فلم أر فيها خطأً غلاً في موضع واحد وهو قوله: العلم أكبر من أن يحاط بكنهه فخذوا البعض.

وروي أن بعضهم ذكر ابن المقفع فقال: ألفاظه معان ومعانيه حكم فصل خطابه شفاء وخصل بيانه كفاء. وسمع أبو العينية بعض كلام ابن المقفع فقال: كلامه صريح ولسانه فصيح وطبعه صحيح كأن بيانه لؤلؤ منثور وروحه مطور. وقال جعفر بن يحيى: عبد الحميد أصل وسهل بن هارون فرع وابن المقفع ثمر وأحمد بن يوسف زهر.

وعبد الحميد هذا هو الذي يضرب به المثل في البلاغة حتى قيل فتحت الرسائل بعبد الحميد وختمت بابن العنيد. وكان أحمد بن يوسف يقول في رسائل عبد الحميد الفاظ محكمة وتجارب محكمة. قال صاحب الوفيات وكان في الكتابة وفي كل فن من العلم والأدب إماماً وهو من أهل الشام وكان أولاً معلماً صبية يتقل في البلدان وعنه أخذ المترسلون ولطريقته لزموا ولا تأثره اقتفوا وهو الذي سهل البلاغة في الترسل ومجنوع رسائله مقدار ألف ورقة.

وقال ابن نباتة: أنه البالغ إلى أعنى المراتب في الكتابة البنيغة يقال أنه كان في أول عمره معنم صبيان بالكوفة ثم اتصل بمروان الجعدي قبل أن يصل إلى الخلافة وصحبه وانقطع إليه فلما جاء الأمر بالخلافة سجد مروان وسجد أصحابه غلا عبد الحميد فقال له مروان: لم لا سجدت فقال: ولم أسجد عنى إن كنت معنا فطرت عنا يعني بالخلافة فقال: إذا تطير معي قال: الآن طاب السجود وسجد وكان كاتب مروان طول خلافته.

وهو أول من أخذ التحنيدات من فصول الكتب واستعمل في بعض كتبه الإيجاز البليغ وفي بعضها الإسهاب المفرط عنى اقتضاه الحال. فمن أفيجاز أن بعض عمال مروان أهدى إليه عبداً أسود فأمره بالإجابة دائماً مختصراً فكتب: لو وجدت لوناً شراً من السواد وعدداً أقل من الواحد لأهديته. وأما الإسهاب فإنه لما ظهر أبو مسلم الخراساني بدعوة بني العباس كتب إليه مروان كتاباً يستبينه ويضمنه ما لو قرئ لأوقع الاختلاف بين أصحاب أبي مسلم وكان من كبر حججه يحمل عنى حمل ثم قال لمروان: قد كتبت كتاباً متى قرأه بطل تدبيره فإن يك ذلك وإلا فالحلاك فلما ورد الكتاب عنى أبي مسلم لم يقرأه وأمر بنار فأحرقه وكتب عنى جراحة منه إلى مروان:

محا السيف أسطار البلاغة وانتحى ... عليك ليوث الغاب من كل جانب

ولما اشتد الطنب عنى مروان وتتابعت هوائيه المشهورة قال لعبد الحميد: القوم محتاجون إليك لأدبت وإن إعجابهم بك يدعوهم إلى حسن الظن بك فاستأمن إليهم وأظهر الغدر بي فنعنتك تنفعني في حياتي أو بعد مماتي فقال عبد الحميد:

أسر وفاءً ثم أظهر غدرة ... فمن لي بعدد يوسع الناس ظاهره

ثم قال يا أمير المؤمنين إن الذي أمرتني به أنفع الأمرين إليك وأقبحهما بي ولكي أصير حتى يفتح الله علينا أو أقتل معك فلما قتل مروان استخفى عبد الحميد فغتر عليه بالجزيرة عند ابن المقفع وكان صديقه وفاجأهما الطلب وهما في بيت فقال الذين دخلوا: أيكما عبد الحميد فقال كل واحد منهما: أنا خوفاً عنى صاحبه إلى أن عرف عبد الحميد فأخذ وسلبه السفاح إلى عبد الجبار صاحب شرطته فكان يحسني له طشتاً ويضعه عنى رأسه إلى أن مات سنة اثنتين وثلاثين ومائة وقيل أنه قتل مع مروان في مصر قال المسعودي أنه رأى عقباً بفسطاط مصر يعرفون بني مهاجر وقد كان منهم عدة يكتبون لأهل طولون. وكان أبو جعفر المنصور يقول: غلبنا بنو أمية بثلاثة أشياء: بالحجاج وعبد الحميد والمؤذن البعلبكي. وقيل لعبد الحميد: ما الذي مكنت من البلاغة قال: حفظ كلام الصلح يعني أمير المؤمنين عني بن أبي طالب كرم الله وجهه. وقيل له إنما أحب إليك أخوك أم صديقتك قال: إنما أحب أخي إذا كان صديقي. وقال أكرموا الكتاب فإن الله تعالى أجرى الرزاق عني أيديهم. وقال: القنم شجرة ثمرها الألفاظ والفكر بحر لؤلؤه الحكمة. ومن كلامه خير الكلام ما كان لفظه فحلاً ومعناه بكرةً.

قال صاحب وفيات الأعيان وكان كثيراً ما ينشد:

إذا خرج الكتاب كانت دويهم ... قسيّاً وأقلام الدوي لها نبلا

ومما نقله عنه أنه ماير يوماً مروان بن محمد عني دابة قد طالت مدتها في منكه فقال له مروان: قد طالت صحبة هذه الدابة لك فقال: يا أمير المؤمنين إن من بركة الدابة

طول صحبتها وقته عنفها فقال له: فكيف سيرها: فقال: همها أمامها وسوطها عنانها وما ضربت قط إلا ظمئاً.

ولعبد الحنيد كصديقه وضريعه عبد الله بن المقفع شعر نادر فبينه:

كفى حزناً إلي أرى من أحبه ... قريباً ولا غير العيون تترجم

فأقسم لو أبصرتنا حين نلتقي ... ونحن سكوت خللتنا نتكلم

هذا ما وصلنا من أخبار هذين الإمامين ونحن نعلم أن ترجمتها على ما أثبتناها هنا ليست مستوفاة من عامة وجوهها ولكن تلاوة كلامها أحسن مترجم عنها إذ كلام المرء قطعة من عقله.

رسالة عبد الحنيد الكاتب

أما بعد حفظكم الله يا أهل صناعة الكتابة وحاطكم ووفقكم وأرشدكم فإن الله عز وجل جعل الناس بعد الأنبياء والمرسلين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ومن بعد الملائكة المكرمين أصنافاً وإن كانوا في الحقيقة سواء وصرفهم في صنوف الصناعات وضروب المحاولات إلى أسباب معاشهم وأبواب رزقهم فجعلكم معشر الكتاب من أشرف الجهات أهل الأدب والمروءات والعلم والورانة بكم تنتظم للخلافة محاسنها وتستقيم أمورهم وينصائحكم يصلح الله لنخلق سلطانهم ويعمر بلدانهم لا يستغني الملك عنكم ولا يوجد كاف إلا منكم فتوقعكم من الملوك موقع أسماعهم التي بها يستمعون وأبصارهم التي بها يصرون ولستهم التي بها ينطقون وأيديهم التي بها يبطشون فامتعكم الله بما خصكم من فضل صناعتكم ولا نزع عنكم ما أضفاه من النعمة عنكم وليس أحد من أهل الصناعات كلها أحوج إلى اجتماع خلال الخير